مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية
المجلد (١٧) العدد (٣) آذار (٢٠١٠)

التفارق الزمني
في رواية الحافات لمحمود الجنداري

د. ارشد يوسف عباس
جامعة كركوك / كلية التربية
قسم اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين وعلى اله وصحبه وبعد:

على الرغم من كون العناية بالجانب النظري حديثة العهد، إلا أن الزمن نال حظا لا باس من عناية السرديين،فخصوه بكثير من البحوث النظرية والتطبيقية،ذلك أن الزمن أصبح يشكل ظاهرة فريدة في تنظيم حركة داخل البنية السردية، تجلت في جوانب كثيرة. لعل ابرزها وأكثرها فاعلية ما كان ربط الأزمنة السابقة مع اللاحقة محققا بذلك لحمةالوحدات الزمنية.

بما أن الزمن هو الحيز الذي تنزل فيه الاحداث؛لذا يطرأ اختلال في التوازن بين أقسامه فيما يتعلق بلحظاته الزمنية، لكن هذا الاختلال فرضته طبيعة الزمن ذاتها عبر الاحداث المتلاحقة التي تدخله تحت طائلة المؤثرات البيئية، وعلى هذا الأساس جاء اختياري لعنوان(التفارق الزمني في رواية الحافات لمحمود جنداري) موضوعا للبحث وقد انقسم البحث على قسمين:.

تناول القسم الأول مفهوم(الرجع) الاسترجاع الذي يضم تقسيمات ثلاثة وهي(القطعي والوصلي والمزجي) مع دراسة تقسيمات فرعية ضمن الأنواع الثلاثة.

وناقش القسم الثاني مفهوم(السبق) الاستباق الذي يستمد قيمته من نفسه. ومن أشكال أخرى كالاستباق المتحرك والاستباق الساكن ثم انتهى البحث إلى خاتمة ضمت أهم النتائج التي توصلت إليها.

أما المنهج الذي سار إليها البحث، فهو التحليل الفني بعد التنظير لمفهوم المصطلح في ضوء طرح أراء النقاد والدارسين.

اما اهم المصادر التي استعنا بها في بحثنا فكانت كتاب (خطاب الحكاية) لجيرار جنيت وكتاب (في السرد) لعبد الوهاب الرقيق. والكتب التي تهتم بالسرديات.

وختاما أقول مهما يحاول الإنسان أن يكتب شيئا إلا ويعتريه الخطأ حسبي انني بشر والكمال لله وحده والحمد لله رب العالمين.

التوطئة:

ولد محمود جنداري في قرية اجميلة عام ١٩٤٤في أسرة فلاحية وكان ترتبه الثالث بين أولاد جندا ري السبعة ، تلقى دراسته الأولية في قضاء الشرقاط ثم أكمل دراسته الثانوية في مدينة الموصل ليدخل إعدادية الصناعة عام ١٩٥٩وتخرج فيها عام ١٩٦٢.وتعد هذه الحقبة من اشد الحقب التي مر بها العراق بصورة عامة بسبب الصراع السياسي في أرجاء القطر(١).

في هذه العقد الستيني الهائج والمضطرب اجتماعيا وسياسيا ،كان فكره الأدبي يعلو على كل هده الاضطراب لتمنحه بعده الأدبي وعمقه الفني ، فكتابة القصة وليدة اللحظات المضطربة والاوقات الهاربة. لذا صب جل جهده لقراءة وكتابة القصة والروايات خلال العقد الستيني. عين موظفا في مديرية الشؤون النفطية، كان كثير التنقل بين موصل وكركوك بحكم وجود الدوائر النفطية في هاتين المحافظتين. انتدب للعمل قرابة سنة في تركيا أثناء الحرب العراقية الإيرانية لمراقبة شحن النفط العراقي. وخلال فترة انتدابه كتب روايته (الحافات) التي نحن بصدد دراستها. بعد ذلك احيل إلى التقاعد عام ١٩٩٥ (٢)

من مؤلفاته عوام الضمأ ١٩٦٨ـ الحصار١٩٧٨ـ حالات١٩٨٤ـ الحافات١٩٨٥ـ عهد المدن١٩٩٤ـ احتمالات١٩٩٥ـ مصاطب الآلهة ١٩٩٥ توفي سنة ١٩٩٣ .

التفارق الزمني :

من البداهة التي أصبحت ثابتة في القصص الحديثة، أنها لم تعتمد التسلسل المنطقي للاحداث ولم تهتم بالترتيب الزمني، وهي بذلك تحقق أغراضا متنوعة تتوزع بين الجمالية والفنية، يعمل هذا التنويع على توسيع أفق العمل الاقصوصي ككل وكشف ما في الحياة الإنسانية من عمق يتصل إلى أزمنة بعيدة((فغياب التسلسل الزمني للحدث لا يعني إلغاء الزمن أو تحجيما لدوره بل هو استخدام جديد له))(٣). ضمن إلية فنية جديدة تعمل على بلورة ألحدث في سياق الزمن السردي. لذلك نرى من الممكن عقد مقارنات بين الماضي والحاضر وملاحظة التغيرات التي طرأت خلال الفترة الزمنية التي انقضت، فتنحسر المسافة بين الماضي والحاضر وتخرج من حال النكرة إلى حال المعرفة دون المساس بصفة الفاعل.

يرى جيرار جنيت أن الزمن، على مستوى القص، ضربان، زمن أولي هو الحاضر، واقترح نعته بأصلي، وزمن تابع، أي متفرع يشمل الماضي (الرجع)والمستقبل (السبق) (٤) ويتحقق تحليل انتظام الأزمنة الثلاثة ((بمواجهة ترتيب مواقع الاحداث أو المفاصل الزمنية في الخطاب السردي بالانتظام ألتتابعي لهذه الوحدات ذاتها أو المقاطع الزمنية في الحكاية)) (٥)

إذ تقوم على توضيح الصلات بين ترتيب الزمني لتتابع الاحداث في النص السردي. وهذا التذبذب في الزمن يؤدي إلى نشوء شكلين هما (٦) :.

أولاً: الرجع أو الاسترجاع:

وهو تقديم حدث أو جملة من الاحداث السابقة في خطية ديمومة الحكاية عن اللحظة التي أدركها القص الأصلي. وينقسم على ثلاثة أنواع هي:

١. الرجع القطعي
٢. الرجع ألوصلي
٣. الرجع المزجي

ثانياً: السبق أو الاستباق:

هو استجلاب قبل الأوان لوقائع سابقة عن اللحظة التي بلغها القص الأدبي. وينقسم على قسمين:

١. الاستباق المتحرك

٢. الاستباق الساكن (٧)

أولاً: الرجع :

أن العناية بالسرد الاستذكاري قد فرضتها ظروف تاريخية، جعلتها تنشأ مع الملاحم القديمة وأنماط ألحكي الكلاسيكي، وتطور نفسها في أحضان الأعمال الروائية الحديثة التي ظلت تنكب عليه حتى برزت شكل لافت للنظر.

فالقصة، لكي تروى، لا بد وان تكون قد تمت في زمن ما غير الزمن الحاضر، لأنه من المتعذر حكي قصة احداثها لم تكتمل بعد، وهذا ما يفسر ضرورة قيام تباعد معقول بين زمن حدوث القصة وزمن سردها (٨). فان كل عودة للماضي تشكل، بالنسبة للسرد، استذكارا يقوم به لماضيه الخاص، ويحيلنا من خلالها على أحداث سابقة عن النقطة التي وصلتها القصة، وتشيع هذه الظاهرة في الرواية بشكل اكبر من غيرها من الأنواع الأدبية. والاحتفال بالماضي واستدعائه يعني توظيفه بنائيا عن طريق الاستذكارات التي تأتي دائما لتلبية بواعث جمالية وفنية خالصة في النص الروائي.(٩)

١. الرجع القطعي

ينعت (جرار جنيت) الرجع القطعي بالخارجي لان سعته تبقى خارجه عن زمن القص الأصلي. (١٠) وهو رجوع يعود بالقارئ إلى أحداث ماضية بعيدا جدا تسبق بداية السرد، وهذه السعة لا تخرجها عن زمن الحكاية، بل هي مكملة لها (١١). وينقسم الرجع القطعي على قسمين:

أ. الرجع القطعي الجزئي:

ويتناول مضمونا قديما فيه جملة من الأخبار الماضية، كحياة الشعوب الماضية، والقبائل الدين عمروا الأرض منذ زمن بعيد، وظيفة هذا الرجع ((إضاءة الحاضر وربطه جدليا بالزمن الماضي حتى تكتسب تجربة شخصية بعدها الإنسان الصميم)) (١٢)

ومن الملاحظ إن رواية الحافات لا تشكل راوية إخبارية موثوقة بحد ذاتها، وإنما تأتي على شكل ذكريات حصلت وقائعها عند الحافات يرجع عندها الراوي إلى عدد من أحداث سابقة ولا يلبث السرد لاحقا إن يوقظه منها.

فعند حافة البحر يطيل البطل الوقوف أمام البحر وهو في أسوأ حالاته وعلى الرغم من شعوره بالخطر والخوف، إلا أنه يتحدى البحر بقوله:((اسمع، قلت لنفسي وأنا أقف لأول مرة أمام البحر، لست أول من يقف خاشعا منقبض الروح أمام رهبة البحر الأبيض المتوسط، ولست الأول الوحيد الذي ينتابه شعور بالخوف والكراهية، والعشق في الوقف نفسه. لست أول الناس ولن تكون أخرهم في ارتعاشة القلب وعمق الدهشة وعمق الإحساس بالموت! قبلك ألاف من البشر، اقحاح في الأصل، حملوا الهم نفسه والخوف نفسه، وتوجعوا بالطريقة نفسها، بل ربما أكثر. قبلك ألاف من البشر، شعراء منفيون سماسرة. مهرجون عرب اقحاح مسلمون، عرب اقحاح غير مسلمين. طوائف من المماليك والسيخ والهندوس، حفت بهم الذكرى وحلقت بهم بعيدا على متن التأريخ البعيد المنسوج من دماء كل هؤلاء)) (١٣)

تتمثل وظيفة هذا الرجع القطعي في توفير جملة من الأخبار عن ماضي الإنسانية الذين سكنوا حافة هذا البحر. غير أن القاسم المشترك لجميع هؤلاء هو إحساسهم بالخوف والرهبة أمام رهبة البحر. ولعل علاقة هذا الماضي بالحاضر تتجدد في استمرار توالي هذه الأجيال في إحساسها بالرهبة أمام ثوران البحر الذي ظل ثابتا شامخا مع تبذل تلك الأجيال.

ويعد هذا الرجع قطعيا لان زمن وقوف الأشخاص أو وقوع الاحداث يرجع إلى ألاف السنيين السابقة عن اللحظة التي يقف فيها بطل الرواية عند حافة البحر. فهو لا يسرد علينا الماضي القريب الذي هو جزء من حياته الشخصية ، بل يعمدُ إلى حذف مسافة زمنية قريبة ويستعيض عنها بفترة زمنية بعيدة ، مما يعمق تجربة الحاضر بالماضي.

ب- الرجع القطعي المتمم:

يتناول هذا النوع حادثة حصلت في الزمن الماضي السابق لبداية القص وهو تكميلي بحكم انه يرتق الشقوق التي طرأت على زمنية القصة.(١٤) ويجمع معاني الاسترجاعات المتممة ويكون صورة مكتملة الألوان والظلال عن الشخصية أو الحادثة (١٥) . إذ يصور القاص اثر الزمن الماضي على الحادثة التي وقعت في الوقت الحاضر.

ومن الأمثلة على الرجع القطعي المتمم ما نجده في حافة اليأس فيقول الراوي: ((لا ادري من أين حصل علوان على هذه المعلومات. لكنه يقول إن رجلا مسنا، هو جد جليلة الأعسر حدثه على هذا النبات السام وانه سبب نزوحه من موطنه في احد جبال لبنان إلى هنا بعد أن تأطر ذلك الجبل بورود حمر قانية، وخضرة قاتمة تقبض النفس كان الجبل قبل ذلك ؟ وكما روى الشيخ المسن،اعتياديا والحياة فيه وادعه ومستقره،والناس الذين يسكنون سفح الجبال، من الجهتين يعيشون في حالة من التوافق والتوازن لا نظير لها، اخلص الواحد للكل، واخذ الكل مسؤولية الواحد، لا احد يتجاوز حدوده، ولا يسمح لنفسه يتجاوز حدوده))(١٦)

تتمثل وظيفة هذا الرجع ليضيف جزءاً على القص الاصلي،وتللك الجزيئة هي محتوى الرجع المتتم،ذلك ان التجارب الماضية على سفوح الجبل اثبتت حصول القتل نتيجة هذا النبات السام،وبينت مدى صعوبة العيش فيه ولكن المثير للتساؤل،هو كيف يمكن العيش طلية هذه المدة مع وجود هذا النبات.هنا يضيف الراوي جزيئة عنه على غاية من الاهمية وهي ان الناس يسكنون سفح الجبل من الجهتين يعيشون في حالة من التوافق والتوازن لا نظير لها.لا احد يتجاوز حدود الاخر. هذا التوافق والتوازن يبرز اهمية الرجع،الناتج عن التجربة الحاضرة على المستوى الواقعي، ذلك ان وقت ظهور هذا النبات الاقتراب منه ممنوعا"، ويحذر الواحد الاخر. اما في اوقات اختفاء هذا النبات فيسمح بالتمتع بسفوح الجبل باعتبار ليس هناك ما يخوف اهالي الجبل.

وتأسيسا على دلك يكون الرجع المتمم قطعي على اعتبار ان تلك الحادثة المتذكرة حاصلة في الزمن الماضي السابق لبداية القص، وهو قريب بحكم انه يبين كيفية العيش على سفح الجبل وما طرأت على زمنية القصة.

وكذلك كشف لنا سر من اسرار الحياة هناك.واذ يجمع القارئ معاني الاسترجاعات المتمة ليكوّن صورة مكتملة الالوان والظلال عن حياة الشخصيات.

٢. الرجع الوصلي:

وهو الرجوع ((إلى ماض لاحق لبداية الرواية قد تأخر تقديمه في النص)).(١٧) ويكون حقله الزمني مدرجا على خط القص الاصلي، لذا لا يتوفر هذا الرجع إلا بعد أن يتقدم القص أشواطا على خط الحاضر (١٨).

بلا شك أن هذا الرجع يتصل مباشرة بالشخصيات والاحداث،ويسير معها ضمن حقل زمني واحد بالنسبة إلى زمنها القديم. الأمر الذي يضفي على الشخصيات والاحداث عمقا وحيوية نجعل الاحداث أكثر واقعية وإقناعا. وينقسم الرجع ألوصلي على ثلاثة أقسام وهي:

أ. الرجع ألوصلي التكميلي:

و يأتي هذا النوع على شكل مقاطع استعادية تسد بعد فوات الأوان فجوة زمنية سابقة حفرها القص الأصلي، وقد تكون هذه الفجوات السابقة حدوفا" مطلقة (١٩) ، ولكنه يحتاجها ليضمن تجانس بنائه الزمني، وقد يستخدم لرصد علاقة بين شخصين، علاقة قائمة بعد ولكن لم يتح للقص عرضها، أو لا خفاء أضواء جديدة على ألحدث (٢٠).

في حافة الموت التي ضمت جلسة حوارية بين البطل وصديقه بعد ما ودعا صديقهما (نزار الجواد) الذي زارهما دون أن يلتقي بالآخرين فقال:((أريد إن أقول لك إن يومي هذا امتلأ بصديق عزيز، صديق انسل وجهه هاربا منه إلى نفوسنا والى دمائنا. أنت تعرفه جيدا وتحبه انه . نزار جواد . هذا الرجل الحزين أبدا، جاء إلينا وأنت غائب اقتحم المنزل بضجته المعهودة. مكث ثلاثة ساعات قرأ بضع قصائد متوترة، غنى بعضا منها. بدأ يتكلم بفرح طفولي يفيض عذوبة ورقه. قال انه سيذهب إليك في مكانك المعتاد. كان سر فرحه انه سيلقاك بعد قليل، عند ناحية الشارع في مقهى الشيخ نوزاد. ولكن حينما اخبرته بسفرك، حزن حزنا عميقا ودهمته خيبة مريرة غيرت حتى ملامحه، صمت وبكى ونسي الشعر وعافت نفسه الغناء. قال انه سيظل حزينا" حتى لحظة التقائه بك وان شوقه إليك بلا حدود، ثم تركنا هو الأخر)) (٢١)

إن دور هذا الرجع يتمثل في إضافة الإطار المعرفي الذي وقع فيه ألحدث بدلالة أن معظم الشخصيات وصلت إلى حافة، البعض فيها يجهل أخبار البعض الأخر(فنزار) الذي نزل عند البطل يجهل سفر صديقه الثاني والأخير يجهل قدوم (نزار) بدلالة سفره، بذلك يؤسس هذا الرجع وظيفة تكميلية تقوم بإخبار الجميع عن سبب الاحداث التي وقعت وهي بذلك تسد فجوة تواجدت في الرواية وأكملت نقصانا في الاستمرار الزمني.

ب – الرجع التكراري

يأتي هذا النوع من الرجع مباشرة عن طريق التكرار اللفظي وغير مباشرة عن طريق يروي ما شاهده الراوى في الماضي (٢٢). فنحن لا نذكر شيئا إلا اذا سبق ذكره،فيما مرة واحدة يطلق عليه بلاغيا فائدة الخبر،ما يذكر اكثر من من مرة فيسمى لزوم الفائدة.

في حافة البحر يحتل صوت (جليلة) موقع العنصر المهيمن على مستوى السردي، فهي تكاد تشغل فكر البطل الذي التحق إلى الجبهة، فلم تغب عن باله طيلة أيام العسكرية، حتى أصبح يتحدث بأخبارها مع أصدقائه. فيقول البطل وهو على دراية بعلاقة صديقه مع جليلة ((اعرف بما ذا سيتحدث هذا الرجل الصامت القريب مني والذي يمد يده في تلك اللحظة باتجاه قدح البيرة. قلت له يجب أن تترك كل شيء وتصغي إلي فعندي بضع كلمات أريدك أن تسمعها جيدا. لم يفاجأ، بل بقي كما عاهدته دائما متوثبا جاد النظرات قاسي الملامح. عندما ينوي على شيء فانه يتحفز إلى أقصى حد. إن هذه الحيوية التي تنبض بها ملامحه وحركاته وكلماته. تشعرني بالعجز قال.

ـ هات. قل ما تريد إنني مصغي

ـ الم تسمع بجليلة ؟

ـ من خلالك، سمعت القليل جدا

ـ اعتقد إنني عرفتك بها ذات يوم، قبل الحرب

ـ لا اذكر إنني عرفت امرأة بهذا الاسم

ـ سأفعل ذلك حال عودتنا، وأعرفكما ببعض

ـ ولكن ما الذي ذكرك بها في هذه اللحظة ؟

ـ وهل تعتقد إنني نسيتها ؟

ـ ظننت أن الحرب قد أنستك كل شيء كما فعلت معي.

ـ الحرب.. الحرب نعم ولكن جليلة ليست خارج الحرب.

ـ ا تعني انك تحبها،حقا ؟َ

ـ لا ادري. كان ذلك قبل سنوات، لكني اليوم لا أستطيع التفكير باحتمال العيش بذونها؟

ـ إلى هذا الحد تغلغلت بدمك ؟

ـ والى ابعد من ذلك

ـ آذن لماذا تحدثني عنها باقتضاب وكأنك مكره على ذلك ؟

ـ الحرب. الم تحدثني أنت عن الحرب طوال هذه المدة وكأنك مكره ؟

ـ هذا صحيح. فمن غير الممكن التحدث عنها بذل الحرب وحتى اذا كان ذلك ممكنا فان ثامر وجدي، كما اعتقد ليس من الذين يصغون لكل شيء. ولو لا هذه الرسائل لما تحمس للحديث عنها)) (٢٣)

إن هذا الرجع يمثل بالنسبة لـ (ثامر وجدي) رجعا تكراريا لأحداث حصلت من قبل بدلالة الجملة (من خلالك،. سمعت القليل جدا) وهذا يمثل فائدة الخبر عند البلاغيين. فهو لا ينكر السمع، ولكن ينكر رؤيتها حقيقا. ويعزى الأمر إلى الحرب (ظننت أن الحرب قد أنستك كل شيء كما فعلت معي).

وفي موضع أخر نجد في النص عددا من الرجع ألوصلي (اعتقد أنني عرفتك بها ذات يوم) وهو رجع الفعل الماضي(عرف) فضلا عن وجود المعين الزمني في جملة (كان ذلك قبل سنوات). إلا صورة جليلة وحبها ظلت محتفظة في مخيلة البطل أينما كان.

ج – الرجع ألوصلي الكلي:

يتناول هذا النوع نفس خط العمل الذي يتناول ألحدث، وهنا يكون خط التداخل واضحا بل محتوما (٢٤). أي يكتمل الكلي ألوصلي ويتعانق مع القص الأصلي عند اللحظة التي أدركها. إن وظيفة الأساسية هي وصل وحدات النص القصصي الكبرى بعضها إلى بعض. (٢٥)

ومن الأمثلة على الرجع ألوصلي الكلي، ما نجده في (حافة الموت) ((ذات يوم ضاقت بعيني الدنيا ووقف ضدي كل من في البيت، فحملت كتبي وجئت إليك، إلى بيتك فأشعرتني بحبك. بحقيقة حبك. أخليت لغرفتك وسريرك ولم تصغ إلى كلام والدتك وشقيقتك. قدتني من يدي وذهبنا إلى رجل دين، فعقد قرأننا وباركه ثم عدنا إلى الغرفة نفسها لنعلن لهم أننا أصبحنا زوجين.

أنت، الذي أصلحت بيني وبين أهلي بعد بضعة أيام فعدت إليهم وأنا أمامهم زوجتك أليس كذلك)) (٢٦).

اذا كان الحديث يدور بين زوجين ن وما آل إليه الزواج ، وهو حاضر القص الأصلي، لكنه لاحق زمنيا الحاضر، (فوقوف من في البيت ضدها مثل رجعا وصلبا، لأنه وقع على خط زمني لاحق لبداية القص، وهو كلي لشموله (بطرح من كان معارضا لزواجهما)ولالتحامهما بالقص الحاضر ولا سيمأ عند اللحظة التي شعروا فيها بدفء الحب. فكأن الساعة الحاضرة قد توقفت برهة، واسترجعت خلسة ما كان في عمر الحكاية، ثم عادت إلى زمن الحاضر. وكذلك (الذهاب إلى رجل الدين) الذي عقد عليهم. وهو رجع وصلي، حدث في زمن ماض إذ يرجع السرد إلى ماضيهم فيصوروا ما أقدموا عليه من قبل. وهذا الرجع مثل رجعا وصليا لاحقا كبداية السرد والتحامه بالقص الحاضر بالضبط عند اللحظة التي أصبحوا فيها زوجين أمام أهليهم.

٣- الرجع المزجي:

وهو نوع من الرجوع يمتد جذوره إلى ماض يسبق بداية الرواية، ثم يعود إلى زمن القص ويتجاوزه و(له فسحة زمنية مزدوجة) فترة واقعة قبل بداية النص وأخرى بعده (٢٧) وهذه الفسحة المزدوجة تولد اختلال في الزمن، تحدده السعة المكانية وليس المدى الزمني، لان نقطة مداها سابق لبداية الحكاية الأولى،ونقطة سعتها لاحقة لها (٢٨). ومن جهة أخرى ينسحب الاختلال الزمني على السعة على اعتبار إن الفترة الماضية مجهولة لدى القارئ بينما يعرف القارئ الفترة الحاضرة إن كانت قليلة أو كثيرة. وفي هذا الأمر يكون القص أبطأ في الجزء الأول من الرجع منه في الجزء الثاني. (٢٩)

ومن الامثلة على الرجع المزجي، ما نجده في حافة البحر إذ يقول (لا ادري بالضبط ولكن للحرب تأثيرا ايجابيا على هذا الميناء. فقد كان ميناء ميتا قبل الحرب، وقد دبت فيه الحياة شيئا فشيئا بعد اندلاعها حتى أصبح بهذا الشكل. كلهم يعتقدون انه مقبل على حالة ازدهار جديدة مرتبطة باستمرار الحرب ! مرة سمعنا من بعض الناس الذين يكنون لنا الود، ان سفينة ضخمة، غريبة دخلت الميناء واقتربت الرصيف دون الاضطرار إلى الانتظار وقتا طويلا تجمهرت أعداد كبيرة من الناس لرؤيتها. ومن حديث الناس عرفنا انه لم يسبق لهذا الميناء أن استقبل سفينة ضخمة بهذا القدر.تسللنا أنا وثامر وجدي من بين الجموع واستأجرنا زورقا تجاريا

واقتربنا منها قبل رسوها. قفز ثامر من الزورق وتسلق حافة السفينة من الأمام بخفة ودهشة أمرت صاحب الزورق أن يبتعد قليلا عنها).(٣٠)

قد ضمن هذا النص رجعيين الأول قطعي بدلالة (قبل الحرب) في جملة (كان ميناء ميتا قبل الحرب) والثاني وصلي بدلالة (بعد) في جملة (دبت فيه الحياة شيئا فشيئا بعد اندلاعها) وهو بهذين الرجعيين شكل رجعا مزجيا أفاد في الرجع الأول (القطعي) أن ميناء قديم تمتد جذوره إلى ألاف السنين وانه منذ القدم لا حياة فيه ولا نشاط للصيادين ولا السفن. في حين أفاد في الرجع الأصلي أن الحياة أخذت شيئا فشيئا تنتعش فيه، حتى أصبح فيما بعد مزدهرا ولبس توبا جديدا واستقبل السفن الضخمة والقريبة. وهنا السرد يسير بشكل متصاعد فيتجاوز نقطة الصفر التي تمثل بداية السرد، ويبدأ بعدها رجع وصلي في انتعاش الحياة ودخول السفن الغريبة فيه.

ومن جهة أخرى نرى أن القاص كان بطيئا في الرجع الأول، إذ لم يتجاوز حدود جملة الواحدة، ولكن سرعان ما أخذ يتصاعد بتصاعد السرد نحو بدايته وهذا الأمر يؤكد إن الفترة الماضية مجهولة لدى القارئ بينما يعرف الكثير عن الفترة الحاضرة.

ثانياً: السبق:

من الملاحظ أن هذا النوع يتخذ مسميات مختلفة لدى بعض النقاد والباحثين،فطورا" يطلق عليه (الاستباق) (٣١) وطورا أخر يسمى (الاستشراف)(٣٢) وطورا (التوقع) (٣٣) وطورا أخر (القبلية) (٣٤) وهذه المسميات تحدث مفارقة زمنيةالتي تبتعد بالسرد عن مجراه الطبيعي.

ومن خلال التدقيق بين هذه المصطلحات المذكورة أعلاه،ارتأينا أن نستخدم مصطلح (الاستباق – السبق) كونه يبدو اكثر تناسبا من بين المصطلحات ف (القبلية) توحي بالإشارة إلى تقدم الاحداث بعضها على بعض من اجل خلخلة النظام الزمني في القصة، و(الاستشراف والتوقع) يرتبطان – نوعا ما – بالمعنى الافتراضي الذي يخمن وقوع حدث معين أو عدم وقوعه في المستقبل،وهو بذلك يدخل ضمن الاحتمالات في المستقبل. وكما هو واضح من خلال

التعريف أن هذه التقنية لا تتوقف عند أحدى هاتين الدلالتين دون الأخرى فهي ((لا تستمد قيمتها من ذاتها ولا من موقع بذرها في النص فحسب، بل وكذلك من العلاقة بينها وبين موقعها من جهة والمقطع القصصي الذي يعرض تحققا سردا أو إلغاءها افتراضا من جهة ثانية))(٣٥) وبذلك يبدو لنا أن الاستباق هو الأنسب استخداما واستجلابها قبل الأوان هو المبدأ الجوهري لهذه التقنية (٣٦).

اجمع الدارسون بان السبق اقل توترا من الرجع. لأنه يقصد به إشارة إلى فعل لم يحدث بعد ثم يصار بعد ذلك إلى تحققه بوصفه جزءا من الحكاية، ويرد ذلك في سياق الأحلام والوصايا والنبوءة (٣٧). فهو بذلك يدخل في أفق التوقع ويرصد ما سيحدث لاحقا، كون المعلومات التي يقدمها لا تتصف باليقينية، لأنه ليس هناك مؤكد يدل على حدوت الحدث. هذا ما يجعل من السبق حسب (فيريح) شكلا من أشكال الانتظار. (٣٨)

ويتم الاستباق أيضا عن طريق توقع أحدى الشخصيات لما سيحدث، أو تخطيط هذه الشخصية للمستقبل في ضوء أحدات أنية القصة.

أما بالنسبة للوظائف التي يقوم بها الاستباق . بوصفه تقنية ذي التأثير المباشر على قلب نظام الاحداث في القصة، عن طريق القفز على مدة ما من زمن القصة . فهي تهيئ القارئ لتقبل ما سيجري من أحداث مستقبلا، ذلك أن ألحدث ألاستباقي ((بمثابة تمهيد أو توطئة لاحداث لاحقة يجري الإعداد لسردها من طرف الراوي فتكون غايتها في هذه الحالة هي حمل القارئ على توقع حادث ما أو التكهن بستقبل إحدى الشخصيات. كما أنها قد تأتي على شكل إعلان عما ستؤول إليه مصائر الشخصيات مثل الإشارة إلى احتمال موت أو مرض أو زواج بعض الشخوص)).(٣٩) وعلى الرغم من أن السرد ألاستباقي ينطوي على قدر كبير من الشك وانعدام اليقين، إلا أن ذلك لا يقلل من أهميته بوصفه مظهرا سرديا يعمل على خلخلة النظام الزمني للاحداث، وينزع إلى نبد التسلسل الخطي لزمنية القصة. ويسجل طابع جمالي في بنية الاحداث القصة.

انواع الاستباق:

للاستباق مظاهر متعددة ومتنوعة، بحسب ما تؤول إليه الاحداث، فمنها ما يتحقق ويثبت صدق وقوعه فيطلق عليه صفة المتحرك، ومنها ما يبطل بحكم أثبات نقيض ألحدث المتوقع فيطلق عليه صفة الساكن أو الجامد (٤٠).

أ. الاستباق المتحرك:

وهو يمكن اعتباره استباق زمني الغرض منه التطلع إلى واقع عياني ملموس يشهد السرد مستقبلا عبر استباق زمني يظهر في نهاية مسار القصة. وهو عند جيرار جنيت (اللامعة) لا يرد بها مجرد استباق بعض أحداث المغامرة بل يوظف كي يصبر القارئ إلى أن يتقبل قبل اكتشافه النهاية. (٤١) وهي تشبه عند (عبد الوهاب الرقيق) بالضوء الخاطف تنضج في نهاية المسار ((فتعني الضوء الخاطف أو البارقة تنطفئ ما أن تلمع فان الاستشراف [وفق المصطلح الذي يستخدمه به عبد الوهاب الرقيق] المتحرك ملفوظ وجيز" جدا في الغالب من الأحوال. وبالفعل يطابق التعيين((التلميحي وظيفتها السردية التي شبهها رولان بارت بالحبة التي تنطوي على معلومة جزئية لن تنضج إلا مؤخرا على مسار القص)) (٤٢)

وينقسم الاستباق المتحرك على قسمين:

١- الإيحائي:

يأتي هذا القسم بشكل ضمني لا تخبر تصريحا وإنما تكتفي بجلب انتباه القارئ إلى ما هو متوقع أو محتمل الحدوث بواسطة علامات بواسطة علامات اشبه بالصور الرمزية.

ومن الامثلة على ذلك ما نجده في حافة الموت، الذي يرسم لنا الراوي صورة كئيبة قاتمة لـ (جليلة) وهي تبكي عندما تحدث عن علوان الذي سافر إلى الخارج فهي بذلك ((لم تتوقف (جليلة) عن الحديث ولم أتوقف عن الإصغاء إليها عندما ذوي انفجار عنيف بالقرب من الشباك في منتصف ساحة وقوف السيارات.

وقبل أن استرد نفسي من هول الانفجار. كانت جليلة الأعسر تسبح ببركة من الدم وتتكوم أمامي جثة هامدة. وكان عنقها الجميل قد امتلأ بالثقوب التي احداثها شظايا الزجاج المتطايرة من الشباك)) (٤٣)

فالراوي استطاع في هذا النص الروائي أن يصل حاضر القصة بمستقبلها عبر خيط متين تمثل في وصفها صورة (جليلة) وهي تتحسر عندما تحدث عن علوان. مع ما تعرض إليها (جليلة) بعد قصف ساحة وقوف السيارات. فجليلة انشغلت بالحديث عن علوان إلى حد انها نسيت صافرة الإنذار التي تزهق بعنف. وجاءت النتيجة عبر مؤشر واضح (تسبح ببركة من الدم) مصيرها المحتوم الذي سيؤول إليه وهو (الموت) ثم اتبع الراوي ذلك بإشارتين اكثر وضوحا وهي (وتتكوم أمامي جثة هامدة) (وكان عنقها الجميل قد امتلأ بالثقوب) وبهاتين الإشارتين ينهي الراوي قصته ويبين أن الاستباق قد حقق غايته في التمهيد.

٢- التقريري:

وهو الاستباق الذي يعلن بشكل صريح عن سلسلة الاحداث التي سيشهدها السرد في وقت لاحق. ومعنى التقريرية لأنها تتضمن طلبا مباشرا، وفيها يعلن صراحة عما سيأتي في سرده مفصلا.

ومثال ذلك نرصده في قصة حافة الموت. إذ يرسم لنا الراوي صورة (ثامر وجدي) المرتجف والذي تتضاعف فيه الرجفة كما توغل في قراءة الرسائل، والذي اخدت من وقته جزءا طويلا. ولم يستطع إخفاء الدموع متسربة من بين أهدابه أمام صديقه (ثامر وجدي) الذي قال: ((لقد ظهر الفجر وأوشكت الشمس أن تطلع. لم يبق من كومة الرسائل إلا رسالة واحدة لا تزال داخل المظروف الأزرق الطويل. كان ثامر قد رماها جانبا ريثما ينتهي من القراءت قلت:

- أتستطيع مواصلة القراءة ؟
- اجل. وهذه الرسالة سأقرأها على مهل.
- لقد طلعت الشمس.
- لا يهم. سأقرأها على مهل.

ـ حسن. ولكن لماذا هذه الرسالة بالذات ؟

ـ لقد أخبرتك: أنها لا تحمل توقيع جليلة.

ـ هي من بهجة مصطفى إذن.

ـ نعم)) (٤٤).

هذا المقطع ما هو إلا إعلان واضح عما يدور في دهن (ثامر) والذي يمر بحالة نفسية ضعيفة أمام كومة الرسائل، ولا سيما الرسالة الأخيرة. وبالرغم من شدة البرد وقسوة معاناته وتأخر الوقت. إلا انه اتخذ قرارا يحقق ما يرمي إليه، وبالفعل يتحقق ذلك القرار ((اشتعل ثامر سيكارة وسحب منها نفسا عميقا ظننت انه سيختنق. نظر طويلا إلى البحر. وبدأ يقرأ)) (٤٥) إن هذه اللامعات تقريرية لأنها تعين بصورة صريحة حال (ثامر) أثناء قراءة الرسائل لأنها تتضمن طلبا مباشرا بمواصلة القراءة. أما الكيفية فإنها جاءت بسرد تفصيلي (اشعل سيكارة) (سحب منها نفسا عميقا) (نظر طويلا إلى البحر) وهذه الجمل تمثل استباق متحرك لان الراوي ينهي قصته ويبين لنا أن الاستباق قد حقق غايته في التمهيد وقراءة الرسالة.

٢- الاستباق الساكن:

ويقترح (عبد الوهاب الرقيق) تسميته بالخدعة والتي تعني ((المراوغة والجواب المظلل والكذب)) (٤٦) وعمادها التأجيل والمماطلة حتى يأتي تصريف اللامعة فيبطل وجودها.

ومثال على ذلك يبدو في حلم (جليلة) بان هذا الصباح يحمل في طياته أشياء مفرحة لها. وانه سوف تتغير مسار حياتها. وهي تقول: ((منذ الصباح الباكر تلبسني فرح غامر لا اعرف سره كان اليوم كله انتظار: انتظار أن تطل علي في البيت،وابصر وجهك من جديد وان أخوض غمار بكاء جديد: إن اغرق فيك من جديد. أوه.. كانت كل لحظة من هذا الصباح تحمل وعدا. ها إنها تقترب تلك اللحظة التي نأت كثيرا)) (٤٧).

نجد في هذا المقطع النصي إعلانات استباقية عبر تأملات (جليلة) لهذا اليوم. فهي تشعر منذ الصباح الباكر بقدوم (علوان)، حيث ملامح الصباح تنبئ بقدوم شخص عزيز، والأجواء تكاد تنطق بالخبر السار وإنها سوف تخوض غمار بكاء شديد من شدة فرحها. فهي تقترب لحظة بلحظة. ثم يأتي المقطع السردي الأخر ليعطي تفصيلا واضحا لهذا الحلم ((وانقضى النهار دون أن يتحقق شيء مما حلمت به: لا أنت أتيت ولا أنا استطعت أن استبقي النهار. لقد قذفتما بي مرة أخرى في جوف الليل، واأسفي ياعلوان فقد كان فرحي مجرد وهم)) (٤٨).

وهكذا يتبين أن هذا الحلم هو استباق ساكن لان ما توقعه (جليلة) كانت مجرد حلم، وكان يراود ذهن (جليلة) استطاع الراوي من خلاله أن يخدع القارئ في أول الأمر. هذا ما جعله مستأنسا بعض الشيء. لكنه بعد مدة وجيزة تبين حقيقة الاستباق بأنه وهم، بذلك يمكن أن نعد هذا الاستباق خادعا لأنه أتبت خلاف ما توقعه (جليلة) وان الصباح جاء مخالفا لما هو متوقع.

الخاتمة:

يقوم بناء ألحدث في القصة الحديثة على تداخل يعبث بالتسلسل الزمني الذي يقوم على السببية والمنطق وهذا التداخل أحداث تفارقا زمنيا مقصودا لاثارة القارئ بالاعتماد على مفهومي (الرجع والسبق) وقد وجدنا في قصدية هذا التفارق فوائد كثيرة منها إفادة القارئ لاحداث حصلت في الماضي سكت عنها السرد ثم عاد ليذكرها من جديد قصد التوضيح وبيان أسباب ما حصل. ومن خلال دراستنا لتفارق الزمني في رواية الحافات (لمحمود جنداري) خرجنا بالنتائج آلاتية:

١. وجدنا في التفارق الزمني الخيط الناظم لحركة السردية من حيث إرجاع القص للحدث أو استباقه. وكلا الأمرين يسهم بطريقة منظمة في تحريك السرد بشكل منطقي، مما يجعل القارئ يفهم كثيرا من الاحداث التي حذفت في مكان ما، وبيان علاقة الحاضر بالماضي والمستقبل.

٢ـ استنادا إلى هذه المسألة (التفارق الزمني) أي الخروج من لحظة الحاضر إلى سياق زمني سالف أو قادم. تبيّن أن الرواية بحد ذاتها تمثل رجعا تذكيرا لماضي البطل ومدى وقفاته على الحافات. وكيف كان ماضيه؟.

٣. من القضايا الأساسية التي عالجها الراوي في الرواية انه عبر عن فوضى الحياة التي يعيشها الإنسان العراقي آنذاك. واخطارها الصورة المؤلمة لعامة الشعب نتيجة حرب حزيران ١٩٦٧ التي تركت دماراً وويلات يتحمل المجتمع جزء كبيرا منها.

٤. جاء الرجع القطعي كمحطة تذكيرية لاحداث الماضية اغلبها جاء عن طريق الروايات أو الآثار التي تركتا وهي بدورها تشكل طرفا في معادلة الحياة، ويستحظرها الراوي في الوقت المناسب لمعالجة الموقف ليزيل الغموض الذي يكتنفه الحدث.

٥ـ الرجع ألوصلي هو السائد في إطار الارجاعات على نحو ما. لكونه يمثل منفذا يحقق له ترويحاً نفسيا وموقفا مضاداً لسلبية الواقع والتحرر منه ولو بشكل نسبي.

٦. سجل الرجع المزجي حالة التواصل بين زمنين ماضي بعيد وماضي قريب وعلاقة ذلك الزمن بالوقت الحاضر، وهو يؤكد على امتداد تلك العلاقة المتوترة قديماً وحديثاً.

٧ـ نظراً لإضطراب الرؤيا في إدراك مجال الانتماء والملائمة مع الحاضر، جاء السبق ليحقق المجال الأرحب للرؤية المستقبلة، ففيها عدد من الأنباءآت والإعلانات عن الاحداث ستحصل لاحقا، غير أن السرد يستبق وقت حصولها.

٨ . أعطت العلامة مؤشرات تتيح بتوقع أحداث مستقبلاً. وان اختيار الحدث يكون بشكل منطقي و له موقع بنيوي مناسب في التشكل الرواية ويتجسد ذلك عندما يسرد حدث قبل حدث ثان على الرغم من وقوع هذا الاخير.

٩. اتسم الاستباق الساكن بالخدعة حول الحدث في المستقبل. وأصبحت اللغة خطابا مراوغاً يستدرج ويتحايل ويتظاهر لإقناع القارئ لتصديق الفكرة. ثم يلتف حول الحدث دون تحققه. الأمر الذي يسجل حيلة سبقية.

الهوامش:

١. موسوعة إعلام الموصل في القرن العشرين: د. عمر محمد طالب: ٢٠٧

٢. م. ن: ٢٠٧

٣. البناء الفني الراوية الحرب في العراق: عبد اللة إبراهيم: ٣٩

٤. في السرد (دراسات تطبيقية) عبد الوهاب الرقيق: ٧٦

٥. خطاب الحكاية: جيرا ر جنيت: ٧٩

٦. السردية العربية (بحت في البنية السردية للموروث الحكائي العربي: د. عبد اللة إبراهيم. ينظر غائب طعمة فرحان روائيا: فاطمة عيسى جاسم: ١٣٤

٧. في السرد: ٧١. ٩٣

٨. بنية الشكل الروائي: حسن بحراوي: ١٢١

٩م. ن: ١٢١

١٠. الرواية: ٤٧

١١. في السرد: ٨١

١٢. م. ن: ٨١

١٣. الرواية: ٤٧

١٤. في السرد: ٨١

١٥. م. ن: ٨١

١٦. الرواية: ١٣٢٠

١٧. بناء الرواية في ثلاثية نجيب محفوظ:سيزا قاسم: ٥٤

١٨. في السرد: ٨٢

١٩. خطاب الحكاية: ٦١. ٦٢

٢٠. في السرد: ٨٣

٢١. الرواية: ٨٠ . ٨١

٢٢. خطاب الحكاية: ٦٤

٢٣. الرواية: ٦٢

٢٤. البنية الزمنية في القصة القرآنية (الاستباق . الاسترجاع): بشار إبراهيم نايف:٥٢

٢٥. في السرد: ٨٢

٢٦. الرواية: ١١١

٢٧. في السرد: ٨٥

٢٨. خطاب الحكاية: ٦٠

٢٩. في السرد: ٨٥

٣٠. الرواية: ٦٥

٣١. خطاب الحكاية: ٥١

٣٢. بناء الرواية: ٦١

٣٣ . بنية الشكل الروائي: ١٣٢

٣٤ . نظريات السرد الحديثة: ١٦٤

٣٥ . في السرد: ٨٩

٣٦ . السرد في قصص أنور عبد العزيز القصيرة: نفلة حسن احمد: ٤٧

٣٧ .المتخيل السردي (مقارنة نقدية في التناص والرؤى والدلالة): عبد الله إبراهيم:٦٣

٣٨ . بنية الشكل الروائي: ١٣٣

٣٩ . م. ن: ١١٤

٤٠ . في السرد: ٩٠

٤١ . م. ن: ٩٠

٤٢ . م. ن: ٩٠

٤٣ . الرواية: ١١٤

٤٤ . الرواية: ١٠٩

٤٥ . م. ن: ١٠٩

٤٦ . في السرد: ٩٣

٤٧ . الرواية: ١٠٦

٤٨ . م. ن: ١٠٦

المصادر والمراجع:

١. بناء الرواية: دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، سيزا احمد قاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤

٢ـ البناء الفني لرواية الحرب في العراق: دراسة لنظم السرد والبناء في الرواية العراقية المعاصرة، عبد اللة إبراهيم، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الأولى، بغداد، ١٩٨٨

٣ـ البنية الزمنية في القصة القرآنية: بشار إبراهيم نايف، رسالة ماجستير، مقدمة إلى جامعة الموصل، بإشراف د. إبراهيم جندا ري، ٢٠٠١

٤ـ بنية الشكل الروائي: حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، بيروت . الدار البيضاء، ١٩٩٠

٥ـ خطاب الحكاية: بحت في المنهج، جيرا ر جنيت، ترجمة محمد معتصم، عبد الجليل الازدي، عمر حلي، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، الطبعة الثانية، ١٩٩٧

٦. رواية الحافات: محمود جندا ري، دار الشؤون الثقافية، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٨٩

٧. السرد في قصص، أنور عبد العزيز القصيرة: نفلة حسن احمد، رسالة ماجستير، مقدمة إلى جامعة الموصل، بأشراف د.هشام محمد عبد اللة، ٢٠٠٤

٨. السردية العربية (بحت في البنية السردية للمورث العربي، د. عبد اللة إبراهيم، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٢

٩. غائب طعمة فرحان روائيا، دراسة فنية، فاطمة عيسى جاسم، ـ أطروحة دكتوراه مقدمة إلى كلية الأدب، جامعة الموصل، بأشراف د. حسين يوسف، ١٩٩٧

١٠. في السرد (دراسات تطبيقية) عبد الوهاب الرقيق، دار محمد علي الحامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٨

١١ـ المتخيل السردي (مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة) المركز الثقافي العربي . بيروت . لبنان، ١٩٩٠

١٢. موسوعة أعلام الموصل في القرن العشرين: د. عمر محمد الطالب، جامعة الموصل، مركز دراسات الموصل، ٢٠٠٧

١٣ـ نظريات السرد الحديثة، والاس مارثن، ترجمة، حياة جاسم محمد، المجلس الأولى للثقافة، ١٩٩٨

Abstract

The building of the event in the recent story stads on time interference in the novelhsts specially the two tenses(Revision and Precedenc) Revision represnts an old telling of the event narrated by the narrator and its period is either near or the far past It represents a telling that is competey different from the current telling.

Whereas precedence represents a telling which follows the narrated story presenting such events will be through propaganda and perdictions. The matter draws the readers attention and puts him in continuous situation to watch what will hap.